نقد تاريخ التمدن الاسلامي

(بقلم الشيخ شبلي النعماني)

٣

﴿ مثالب بني أمية ﴾

المقصد الذي جعله المؤلف نصب عينه ومرمى غايته هو ان الامة العربية اذا بقيت على صراطها فهي جامعة لجميع اشتات الشر ، أي الجور والقسوة والهمجية وسفك الدماء والفتك بالناس . ولكن لما كان لا يقدر على اظهار هذا المقصد تصريحا احتال في ذلك فعمض للمذهب وجعل الكلام طيب الظاهر وذلك بأن قسم عصر الاسلام الى ثلاثة أدوار ـ فمدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها .

« على أن سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك وانما هي خلافة دينية توفقت الى رجال يندر اجتماعهم في عصر . فاهل العلم بالعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بد (الجزء الرابع صفحة ٢٩ و ٣٠)

فاثبت بذلك ان سياسة الخلفاء الراشدين ليست فيها اسوة للناس وانها من مستثنيات الطبيعة ، أما دور العباسيين فمدحه ولكن لا لاجل انه دولة عربية بل لكونها فارسية مادة وقواماً مؤتلفا ونظاماً وصرح بذلك فقال :

« دعونا هذا العصر فارسيا مع انه داخل في عصر الدولة العباسية لان تلك على كونها عربية « من حيث خلفاءها ولغتها وديانتها فهي فارسية من حيث سياستها وإدارتها لان الفرس نصروها وايدوها ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شئونها ومنهم وزراؤها وامراؤها وكتابها وحجابها » (الجزء الرابع صفحة ١٠٦)

ثم اشار في غير موضع الى أن الدولة العربية الساذجة انما هي دولة بني أمية فقال :

« وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية » (الجزء الرابع صفحة ١٠٣)
« وظل العرب في ايام بني أمية على بداوتهم وجفاوتهم وكان خلفاؤها يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب اساليب البدو وآدابهم (الجزء الرابع صفحة ٦١)

ولما اثبت ان خلافة الراشدين لم تكن تلائم النظام الطبيعي وان دولة بني العباس دولة فارسية وان الباقية على صرافتها هي الدولة الاموية اخذ يعدد مثالب بني أمية تحت عنوانات مستقلة منها الاستخفاف بالدين وأهله ، ومنها الاستهانة بالقرآن والحرمين ، ومنها الفتك والبطش ، ومنها قتل الاطفال ، ومنها خزانة الرؤس . وأتى في مطاوي هذه العنوانات من الافك والاختلاق والتحريف والتبديل بما تجاوز الحد وخرج عن طور القياس . والآن اذكر نبذاً منها واكشف عن جلية حالها ،

« الاستهانة بالقرآن والحرمين »

قال المؤلف تحت هذا العنوان :

«اما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ولو خالف الدين . لانه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة ... ذكروا انه لما جاؤه بخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فاطبقه وقال: هذا آخر العهد بك — او — هذا فراق بيني وبينك . فلا غرو بعد ذلك اذا اباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة . وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثاً وهدموا الكعبة وهي بيت الله عندهم واوقدوا النيران بين احجارها واستارها» (الجزء الرابع صفحة ٧٨ و ٧٩)

الحكاية على الاجمال ان ابن الزبير ادعى الخلافة فملك الحرمين والعراق وكاد يغلب على الشام وكان امره كل يوم في ازدياد وبازائه بنو أمية في الشام فلما تولى عبد الملك الخلافة ارسل الحجاج الى ابن الزبير فحاصره ولاذ ابن الزبير بمكة فنصب الحجاج المنجنيق على الزيادة التي كان زادها ابن الزبير (كما يجيء تفصيله)

يعرف كل من له ادنى المام بالتاريخ ان الحجاج ما اراد الا قتال ابن الزبير ولكونه لائذاً بالكعبة اضطر الى نصب المنجنيق على الكعبة ولكن مع ذلك تحرز عن عن وجه الكعبة فحول وجهها الى زيادة ابن الزبير . فانظر كيف غير المؤلف مجرى الحكاية فصدر الباب بالاستهانة بالقرآن والحرمين . ثم ذكر ان عبد الملك قال للقرآن:

هذا فراق بيني وبينك . وانه ابلغ للحجاج ضرب الكعبة بالمنجنيق وهدم الكعبة وإيقاد النيران بين استارها فالناظر في عبارته يتوهم بل يستيقن ان عبد الملك تفرغ من بدء الامر للاستهانة بالدين والقرآن والحرمين وجعل الاستهانة نصب عينه ومرمى غايته ، وقتل ابن الزبير كان امالانه دافع عن مكة او لكونه ايضاً من جنس الاستهانة بالحرم .

اما تفصيل الواقعة وتعيين بادىء الظلم فهو ان ابن الزبير لما استولى على الحرمين اخرج بني أمية من المدينة فخرج مروان وابنه عبد الملك وهو عليل مجدور فاستولى على الشام وصدرت من ابن الزبير افعال نقموا عليه لاجلها فمنها انه تحامل على بني هاشم واظهر لهم العداوة والبغضاء (١) حتى انه ترك الصلاة على النبي في الخطبة ولما سألوه عن هذا قال ان للنبي اهل سوء يرفعون رءوسهم اذا سمعوا به (٢) ومنها انه هدم الكعبة ومع ان هدمها لم يكن الا لرمتها واصلاحها ولكن لم يكن هذ مألوفا للناس ولذلك تحرز النبي عليه السلام عن ادخال الحطيم في الكعبة فاتخذ الحجاج هذه الامور وسيلة لاغراء الناس على ابن الزبير . ولعل ابن الزبير كان مضطرا الى هذه الاعمال ولكن من شريطة العدل ان نوفي كل واحد قسطه من الحق فاذا اعتذرنا لابن الزبير فعبد الملك احق منه اعتذرا فان ابن الزبير هو البادىء والبادىء اظلم . ويظهر من هذا ان عبد الملك ما اراد الحط من شأن الكعبة ومن شرفها ولكن اضطر الى قتال ابن الزبير فوقع ما وقع عرضا غير مقصود بالذات ولذلك لما نصب الحجاج المناجيق على الكعبة حولها عن الكعبة وجعل الغرض الزيادة التي كان زادها ابن الزبير ، صرح بذلك العلامة البشاري في احسن التقاسيم . ثم ان من مسائل الفقه ان البغاة اذا تحصنوا بالكعبة لا يمنع هذا عن قتالهم ولذلك امر النبي في وقعة الفتح بقتل احدهم وهو متعلق باستار الكعبة وابن الزبير كان عند اهل الشام من البغاة والمارقين عن الدين

ولو كان اراد الحجاج الاستهانة بالحرم فما كان مراده من رمته واصلاحه بعد قتل ابن الزبير ومعلوم ان تعمير الحجاج هو اليوم كعبة الاسلام وقبلة المسلمين كافة

اما قول عبد الملك للقرآن هذا فراق بيني وبينك ، فحقيقته ان عبد الملك كان قبل الخلافة ناسكا منقطعاً الى العبادة لا يشتغل بشيء من الدنيا ، قال نافع ما رايت في المدينة اشد نسكا وعبادة من عبد الملك ، ولما سألوا ابن عمر الى من نرجع في

(١) اليعقوبي طبع اوربا صفحة ٣١١ من الجزء الثاني (٢) الجزء الثاني من اليعقوبي صفحة ٣١١

الفتوى بعدك ؟ قال « ولد مروان » وكان يقول ابن الزناد الفقهاء في المدينة سبع احدهم عبد الملك . وقال الامام الشعبي ماجالست احداً الا وجدت عليه الفضل الا عبد الملك بن مروان. ذكر كل هذه الاقوال العلامة السيوطي في تاريخه للخلفاء . فلما جاءته الخلافة وهو يقرأ القرآن تصور خطارة الامر وان مثل هذا العبء لا يمكن تحمله الا المنقطع اليه فقال مخسراً هذا آخر العهد بك . اي الآن لا يمكن الانقطاع الى العبادة وقراءة القرآن كما كان دأبي أولا ، وليس هذا على سبيل الاستهانة بالدين مطلقاً فانا نرى اشتغال عبد الملك بالفرائض والسنن فيما بعد فهو يصوم ويصلي ويحج قال اليعقوبي في تاريخه : واقام الحج للناس في ولايته سنة ٧٢ الحجاج بن يوسف وسنة ٧٣ وسنة ٧٤ الحجاج ايضاً وسنة ٧٥ عبد الملك بن مروان وسنة ٧٦ ابان بن عثمان ابن عفان ، وسنة ٧٧ ابان ايضاً وسنة ٧٨ وسنة ٧٩ وسنة ٨٠ ابان ايضاً وسنة ٨١ سليمان بن عبد الملك (وسرد باقي السنوات فتركناها) وعبد الملك هو الذي كسا الكعبة الديباج فهل هذا صنيع من يريد الاستهانة بالحرم ؟

قال المؤلف

« ويحز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة » (الجزء الرابع صفحة ٧٩)

استند المؤلف في هذه الرواية بالعقد الفريد لابن عبد ربه والاستناد بمثل هذه الكتب في مثل هذه الوقائع هو من احدى حيل المؤلف المعتادة بها فانت تعلم ان حادثة قتل ابن الزبير مذكورة في الطبري وابن الاثير وغيرهما من المصادر التاريخية المتداولة الموثوق بها وعليها المعول واليها المرجع لكن لم تكن كيفية الحادثة في هذه الكتب وفق هوى المؤلف اعرض عن هذه كلها وتشبث بكتاب هو في عداد المحاضرات وانما يرجع الى أمثاله اذا لم يكن في الباب مستند غيره ومتى لم يخالف الاصول . والمذكور في الطبري وغيره ان عبد الله بن الزبير أصيب في الحجون وقتل هناك قتله رجل من المراد ، وما احتز رأسه داخل الكعبة

قال المؤلف « وهدموا الكعبة »

قدمنا ان الكعبة لم تكن غرضا للحجاج وانما كان نصب المناجيق على الزيادة التي زادها ابن الزبير ولما كانت متصلة بالكعبة نالت الاحجار من الكعبة ولكن كان أول ما فعله الحجاج بعدما استتب القتال أمره بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم كما نص عليه ابن الاثير فهل كنس المسجد الحرام من الحجارة والدم وهدم الكعبة شيء واحد ؟

أما ما قال المؤلف عن كفر الوليد وأنه أمر بالمصحف فعلقوه وأخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه وأنشد

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله مزقني الوليد

ونقل هذه الرواية عن الاغاني فهي من خرافات الاغاني، ومعلوم أن صاحب الاغاني شيعي ديانته شنآن بني أمية والحط منهم. وأما الابيات فأثر التوليد ظاهر عليها ومن له أدنى مسكة بالادب يشهد ان نسجها غير نسج الاوائل، فاما جهابذة المحدثين المرجوع اليهم في نقد الروايات والذين قولهم فصل في هذا الباب فيجحدون أمثال هذه الروايات المختلقة. قال العلامة الذهبي وهو رأس الحديث ومرجع الرواية « لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة بل اشتهر بالخمر والتلوط فخرجوا عليه لذلك » (تاريخ الخلفاء للسيوطي ترجمة الوليد)

ثم ان هناك أمراً آخر وهو ان الناقم على الوليد وقاتله هو خليفة أموي، فكيف ينسب استهانة الدين الى خلفاء بني أمية عامتهم. ثم ان هذا الذي عزا اليه صاحب الاغاني الاستهانة بالقرآن قد ذكر له صاحب العقد ما ينبيء عن تعظيمه للقرآن وتفخيمه شأنه وحث الناس على حفظه وتعهده قال صاحب العقد (١) أنه شكا رجل من بني مخزوم ديناً لزمه فقال (الوليد) اقضيه عنك ان كنت لذلك مستحقاً قال يا امير المؤمنين كيف لا أكون مستحقاً في منزلتي وقرابتي ? قال قرأت القرآن ? قال لا، قال فادن مني فدنا منه فنزع العمامة عن رأسه بقضيب في يده فقرعه قرعة وقال لرجل من جلسائه ضم اليك هذا العاج ولا تفارقه حتى يقرأ القرآن. فقام اليه آخر فقال يا امير المؤمنين اقض ديني، فقال له أتقرأ القرآن ? قال نعم فاستقرأه عشرا من الانفال وعشرا من براءة فقرأ، فقال نعم نقضي دينك وانت أهل لذلك. فانت ترى ان الوليد يعد من لا يقرأ القرآن علجا والمؤلف يعد الوليد علجا

فاما ما ذكره المؤلف من اقوال الحجاج وخالد القسري وأنهما كانا يفضلان الخلافة على النبوة فمع ان اكثر هذا الاقوال مأخوذ من العقد الفريد وهو من كتب المحاضرات لسنا نحتاج الى الذب عن الحجاج وخالد فانهما من اشرار الامة حقاً ولكن كم لنا من امثال هؤلاء الملاحدة في الدولة العباسية كالمجاردة وابن الراوندي الذي عمل كتابا رد فيه على القرآن وسماه بالدامغ فاذا كان العباسيون

(١) الجزء الثاني صفحة ٢٥٨

مسئولين عن اوزار هؤلاء عند المؤلف فكذلك بنو أمية . وان كان عبد الملك والوليد يرتضيان بسوء اعمال الحجاج فمعلوم ان غيرهما من بني أمية كانوا ناقمين عليه كافة حتى ان هشاما قال « هل الحجاج استقر في جهنم او يهوي الى الآن » ولما وصل الى هشام ان خالداً القسري استخلف بامرأة مؤمنة عزله من الامارة وسجنه كما ذكره ابن خلكان

والحاصل ان المؤلف لو خص رجلا أو رجلين من بني امية بالطاعن لاعترفنا به ولكن من سوء مكيدة المؤلف انه يجعل الفرد جماعة والشذ نوعا والنادر عاما والشاذ مطرداً

﴿ جور بني أمية ﴾

سمعنا بمظالم مختصر ، وأحطنا علما بشنائع جنكيزخان ، واطلعنا على ماجنته أيدي التتر ، فوالله - لو صدق المؤلف - هم ما كانوا أشد قسوة ولا أفظع أعمالا ولا أسفك دماء ولا أجمع لانواع الفتك من بني أمية

قال المؤلف « حتى في أيام معاوية فانه أرسل بسر بن أرطاة وأرسل معه جيشاً ويقال انه (أي معاوية) أوصاهم أن يسيروا في الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي ولا يكفوا أيديهم عن النساء والصبيان (الجزء الرابع صفحة ٨٢)

قبل أن أكشف عن جلية الامر لابد من تقديم مقدمة ، وهي ان المؤلف مدح بني العباس وجعل أعمالهم مناطاً للعدل ودلالة على الرفق فقال

(ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد في ظل الدولة العباسية فان العدالة توطد دعائم الامن واذا أمن الناس على أرواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل فتعمر البلاد ويرغه أهلها ويكثر خراجها (الجزء الثاني صفحة ٨١)

وعلى هذا اذا وجدنا بني أمية معادلين لبني العباس في جميع أعمالهم سواء بسواء كان اختصاصهم بالذم دون بني العباس جوراً فاحشا وميلا عظيما . ثم ان هناك أمرا آخر وهو ان المؤرخين بأسرهم كانوا في عصر بني العباس ومن المعلوم انه لم يكن يستطيع أحد أن يذكر محاسن بني أمية في دولة العباسيين فاذا صدر من أحد شيء من ذلك فتلة كان يقاسي قاتلها أنواعا من الفتك والايذاء ووخامة العاقبة ، وكم لنا من أمثال هذه في أسفار التاريخ . ومع اننا نفخر بأن مؤلفي الاسلام كانوا أصدق الناس رواية وأجرأهم على اظهار الحق ما كان يمنعهم عن بيان الحقيقة سلطة ملك ولا مهابة

جائز ، ولكن مع ذلك فرق بين تعمد الكذب والسكوت عن الحق ، ولذلك نعتقد انهم ماقالوا شيئاً افتراء على بني أمية ولكن ان قلنا انهم كثيرا ما سكتوا عن محاسنهم فذلك شيء لا يدفع وليس فيه غض منهم

أما بنو العباس فكانوا في عصرهم ولاة البلاد ، وملاك رقاب الناس ، رضاهم الحياة ، وسخطهم الموت ، فالوقيعة فيهم والاخذ عليهم ما كان يمكن الا بعد مخاطرة النفس والاقتحام في المهالك ونصب النفس للموت

رجعنا الى قول المؤلف ان معاوية امر بقتل النساء والصبيان . اعلم ان هذه الواقعة اي ارسال (بسر بن ارطاة) الى شيعة علي من اشهر الوقائع المذكورة في سائر كتب التواريخ وليس في احد منها قتل النساء والصبيان بل فيها ما يخالف هذه الرواية . قال المؤرخ اليعقوبي « ووجه معاوية بسر بن ارطاة وقيل ابن أبي أرطاة العامري من بني عامر بن لؤي في ثلاثة آلاف رجل فقال له سر حتى تمر بالمدينة فاطرد أهلها وأخف من مررت بها وانهب مال من أصبت له مالا ممن لم يكن دخل في طاعتنا وأوهم أهل المدينة انك تريد أنفسهم وانه لا براءة لهم عندك ... حتى تدخل مكة ولا تعرض فيهما لاحد وارهب الناس فيما بين مكة والمدينة ثم امض حتى تأتي صنعاء فان لنا بها شيعة وقد جاءني كتابهم . فخرج بسر فجعل لا يمر بحي من أحياء العرب الا فعل ما أمره معاوية (اليعقوبي طبع أوربا صفحة ٢٢١ من الجزء الثاني) »

فترى في هذه العبارة انه لم يكن هناك الا تخويف وتهديد وايهام . ولما رأى المؤلف ان المصادر التاريخية الموثوق بها لا يوجد فيها ما يوافق هواه جنح الى الاغاني ونقل أمر معاوية بقتل النساء والصبيان ثم اعتذر عن معاوية بأن المظنون خلاف ذلك لحلمه ودهائه ، والظن ان معاوية أطلق يد بسر ولم يبين له حدودا وكان بسر سفاكا للدماء فلم يستثن طفلا ولا شيخا

قد قلنا ان الاغاني من كتب المحاضرات فاذا كان الامر هينا والحديث فكاهة أو تسلا من كد العمل الى استراحة فلا بأس به وبأمثاله أما اذا كان الامر ذا بال وكانت الواقعة معترك الاختلاف ومعفر الاهواء رافعا لشأن أو هادما لاساس فأمثال هذه الكتب لا يؤذن لها ولا يلتفت اليها مطلقا

ثم ان الرجل (أي صاحب الاغاني) شيعي اذا جاءه شيء مما يشين معاوية ويدنسه وجد في نفسه ارتياحا الى قبوله ولو كان من أوهن الاحاديث وأ كذبها

نعم ان بسر بن ارطاة قتل طفلين ولكن القتل لم يتجاوز الاثنين (١) فأين هذا من قول المؤلف

« وكان بسر سفاكا للدماء فلم يستثن طفلا ولا شيخا »

قال المؤلف « فاذا كان هذا حال العمال في أيام معاوية مع حلمه وطول اناته فكيف في أيام عبد الملك مع شدته وفتكه فهل يستغرب ما يقال عن قتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبرا ولو كانوا ١٢٠٠٠٠ (الجزء الرابع صفحة ٨٣)

نعم قتل الحجاج مئة ألف أو مائتين ولكن أين هذا من ضيعة أبي مسلم الخراساني القائم بدعوة بني العباس المؤسس لدولتهم فانه قتل صبراً بدون حرب ما يبلغ ستمائة ألف وقداعترف به المؤلف في هذا التأليف نفسه (الجزء الثاني صفحة ١١٢) والمؤلف ينتحل لذلك عذراً ويحسبه من طبيعة السياسة . فالحجاج أحق بالعذر وأجدر بالعفو ، فان الحجاج عربي فح طبعه الجفاء والقسوة . أما أبو مسلم فعجمي تربى في حجر التمدن ، وغذي بلبان الظرف ودماثة الاخلاق (!!)

أما قوله إن عبد الملك كان أشد وطأة منه (أي من الحجاج) فلم يأت عليه بشاهد غير غدره بعمر بن سعيد ، وأين هذا من غدر المنصور العباسي بأبي مسلم الذي هو رب الدولة العباسية ، ولولاه لما قامت للعباسيين قائمة ، ولا كان لهم ذكر ، وكذلك غدر المنصور بابن هبيرة

وغاية ما يقضى منه العجب ان المؤلف بعدما ذكر فتك بني أمية بقوله : « وقد فقعهم هذه السياسة (أي سياسة الفتك) في تأييد سلطانهم (قال) صارت سنة من ملك بعدهم من بني العباس وغيرهم » وأنت تعلم ان المؤلف يبرىء ساحة العباسية من الجور والظلم فضلا عن الفتك ، فهل هذا تناقض في القول أو أراد بهم قمعاً فضرهم من حيث لا يعلم ؟ لا والله لا هذا ولا ذاك ، بل هي من مكايد المؤلف التي لا يهتدي اليها الا فطن خبير لطوية الرجل وكامن ضغنه

---

(١) المنار : في هذا النفي بل فيما أورده الناقد في هذه المسألة نظر فقد نقل الحافظ في الاصابة عن ابن يونس ان معاوية وجه بسر الى اليمن والحجاز سنة أربعين « وأمره أن يقتل من كان في طاعة علي فيوقع بهم فعل » فهذا كلام المحدثين لا الشيعة وأهل المحاضرة وقد اشار في الاصابة الى انه لا ينبغي التشاغل باخبار بسر الشهيرة في الفتك اي لما قيل من ان له صحبة . وهل يعقل ان يكون ايقاعه بالمطيعين لعلي قاصرا على قتله طفلي ابن عباس رضي الله عنهما ؟؟